نفحات من عبق السيرة النبوية

الدرس الثامن والعشرون

✉عناصر المحاضرة:

❶ كلمة حول الغزوات.

❷ حج أبي بكر الصديق – رضي الله عنه -.

❸ الوفود والدعاة والعمال.

كلمة حول الغزوات:

كانت كلمة الحرب تعني في الجاهلية القتل والفتك والإحراق والتدمير والنهب والسلب وهتك الأعراض والإفساد في الأرض، وإهلاك الحرث والنسل دون رحمة ولا هوادة، فلما جاء الإسلام غير هذا المعنى تغييراً تاماً، فجعل الحرب سبيلاً لنصرة المظلومين، وكبت الظالمين، ووسيلة لبسط الأمن والسلام على الأرض، وذريعة لإقامة العدل، وإنقاذ الضعفاء من براثن الأقوياء ولإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

ولم تكن من شيمة العرب أن يخضعوا لأحد، مهما طال القتال، ومهما غلا الثمن، فقد دام القتال بين بكر وتغلب في حرب البسوس أربعين عاماً، وكانت ضحيتها حوالي سبعين ألف مقاتل، ولم يخضع أحدهما للآخر، ودامت حروب الأوس والخزرج أكثر من مائة عام، ولم يخضع أحدهما للآخر، فهذه هي شيمة العرب قبل الإسلام: مواصلة الحروب، وعدم الخضوع للعدو.

ثم جاء النبي - صلى الله عليه وسلم - بالإسلام فواجهته العرب بنفس الأسلوب، وجروه إلى ساحة القتال، ولكنه واجههم بأسلوب آخر حكيم، حتى فتح قلوبهم قبل أن يفتح بلادهم، وإذا قارنت حصائد غزواته ونتائجها بنتائج حروب الجاهلية ترى عجباً عجباً، فمجموع من قتل في جميع غزواته وحروبه - صلى الله عليه وسلم - من المسلمين والمشركين واليهود والنصارى هم في حدود ألف قتيل فقط، والمدة التي استغرقتها هذه الغزوات لا تزيد على ثمانية أعوام، ولكنه في هذه الفترة القليلة، وبإهراق هذا القدر القليل من الدم أخضع الجزيرة العربية كلها تقريباً، وبسط الأمن والسلام في أقصى ربوعها وأرجائها ـ أترى أن هذا يمكن بقوة السيف؟ ولا سيما بالنسبة لأولئك الذين كانوا يتفانون في الحروب لأمور تافهة، ويضحون بالآلاف بعد الآلاف دون أن يتصور منهم الخضوع؟ كلا. بل إنها نبوة ورحمة، ورسالة وحكمة، ودعوة ومعجزة، وفضل من الله ونعمة.

حج أبي بكر الصديق – رضي الله عنه -:

كان العرب يزعمون أنهم على دين إبراهيم - عليه السلام - ومن الشعائر التي كانوا متمسكين بها من هذا الدين حج البيت الله الحرام، فكانوا يقيمون الحج كل عام، ويهتمون به أيما اهتمام، وكانوا قد أدخلوا فيه عدداً من البدع والتغييرات، فلما فتح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مكة سنة ثمان وأمر عليها عَتّاب بن أَسِيد قام عتاب بالحج، فحج معه المسلمون والمشركون كما كانوا يحجون في الجاهلية، لم يغير منه شيء، فلما كان عام القابل - العام التاسع من الهجرة - أرسل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - أميراً على الحج، ليقيم بالناس المناسك، فخرج في أواخر ذي القعدة سنة 9 هـ في ثلاثمائة من أهل المدينة، ومعه عشرون بدنة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وخمس لنفسه.

ثم نزلت أوائل سورة براءة بنبذ العهد لجميع المشركين الذين لم يوفوا بعودهم، وأن يمهل هؤلاء ومن لا عهد له أربعة أشهر، يسيحون خلالها في الأرض كيفما يشاءون، حتى يعلموا أنهم غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ، وأمر بإتمام العهود إلى مدتها للمشركين الذين ينقضوها، ولم يظاهروا على المسلمين أحداً.

فأرسل بها النبي - صلى الله عليه وسلم - علي بن أبي طالب ليبلغها الناس يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ، وقال: لا يبلغ عني إلا رجل مني، فلحق علي أبا بكر بضجنان أو بالعرج، فقال له أبو بكر: أمير أو مأمور؟ قال: مأمور. فكان يصلي وراء أبي بكر.

وأقام أبو بكر - رضي الله عنه - للناس حَجهم، فلما كان يوم النحر قام علي - رضي الله عنه - عند الجمرة فقرأ على الناس أوائل سورة براءة، وفيها ما سبق من نبذ العهود، والإمهال، والإتمام، وبعث أبو بكر - رضي الله عنه - رجالاً ينادون: أنْ لا يَحُجَّ بَعْدَ العَامِ مُشْرِكٌ ولَا يَطُوفَ بالبَيْتِ عُرْيَانٌ.

❍ويقول ابن كثير عن طواف بعض القبائل عراة حول الكعبة: كانت العرب عدا قريش لا يطوفون بالبيت في ثيابهم، يتأولون في ذلك بأنهم لا يطوفون في ثياب عصوا الله فيها، وكانت قريش وهم الحمس يطوفون في ثيابهم ومن أعاره أحمسي ثوبًا طاف فيه ومن معه ثوب جديد طاف فيه ثم يلقيه فلا يتملكه أحد ومن لم يجد ثوبًا جديدًا ولا أعاره أحمسي ثوبًا طاف عريانًا".

الوفود والدعاة والعمال:

كان العرب ينتظرون نتيجة الصراع القائم بين قريش والنبي - صلى الله عليه وسلم -، وكانوا يعتقدون أن الباطل لا يمكن أن يسيطر على المسجد الحرام بالقوة والفتح، ولم تكن قصة أصحاب الفيل عنهم ببعيدة، فلما أكرم الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - بإدخاله في المسجد الحرام، وبتسليطه على كفار مكة، ولم يبق عندهم أدنى شك في كونه رسولاً حقاً، فبدأت القبائل العربية تتوافد إليه تترى. تؤمن برسالته وتقر بطاعته، وأخذ الناس يدخلون في دين الله أفواجاً. وخلال فترة قصيرة اتسعت رقعة الدولة الإسلامية من ساحل البحر الأحمر إلى ساحل الخليج العربي، ومن مناطق جنوب الأردن ومشارف الشام إلى سواحل اليمن وعمان، وأخذ النبي - صلى الله عليه وسلم - ينظم أمور هذه البلاد الشاسعة، فيرسل الدعاة وينصب الولاة، ويبعث جباة الصدقات، ويوفر ما يحتاج إليه نظام العباد والبلاد من القضاة والعمال، وسنمر بشيء من كل ذلك حسب المقام قريباً إن شاء الله.

والوفود التي توافدت إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يزيد عددها على سبعين وفداً، حسب ما ذكره عامة أهل السير، وقد حاول بعض أهل العلم استقصاء هذه الوفود - سواء ثبتت الرواية بها أو لم تثبت - فأبلغها قريباً من مائة وفد.

وكانت الوفادة إليه - صلى الله عليه وسلم - قد بدأت قبل الفتح، وقد توافد إليه البعض في أوائل سنوات الهجرة، بل قد جاءه بعض الوفود قبل الهجرة، إلا أن الوفادة العامة، وفي صورة متوالية مستمرة إنما وقعت بعد الفتح في السنة التاسعة، وقد امتدت إلى السنة العاشرة، بل وإلى ما بعدها أيضاً، ولذلك سميت السنة التاسعة بسنة الوفود.

✉ومعظم هذه الوفود كان أعضاؤها سادات القبائل، ورؤساءها، ورجالا من أهل الحل والعقد منها، وربما توافد الرجل وحده، أو توافد ومعه رهط صغير.

✉أما الغرض المطلوب من الوفادة فكان يختلف من وفد على وفد، فمنهم من جاء يريد رد السبايا والمأخوذين، كما تقدم في وفد هوازن، ووفد تميم، ومنهم من جاء يريد الأمان لنفسه فقط، أو لنفسه وقومه كليهما، ومنهم من جاء يفاخر ويباهي، أو يناظر ويجادل، ومنهم من جاء يطلب رد الجيش الإسلامي كيلا يهجم على قومه، ومنهم من جاء يقر بالطاعة والجزية، ومنهم من جاء يبدي رغبته في الإسلام، ويبدى رجاء ذلك من قومه، ومنهم من جاء مسلماً طائعاً ممثلاً لقومه، يرغب في معرفة تعاليم الإسلام وأحكامه.

✉وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقابل هذه الوفود بما جبله الله عليه من البشاشة وكرم الأخلاق، فيجيزهم بما يرضيهم، ويرغبهم في الإسلام، ويعلمهم الإيمان والشرائع ليعلموا من ورائهم، وكانت هذه الوفود أعظم وصلة لإظهار الدين بين الأعراب في البوادي، فقد كانت نتائج هذه الوفادات، مع تنوعها واختلاف أغراضها، إسلام المتوافدين، ثم إسلام قومهم عاجلاً أو بعد فترة قصيرة، ولم يشذ عن ذلك إلا البعض فقط، مثل بني حنيفة ومسيلمة الكذاب، وفيما يلي تذكر بعض الوفود المهمة.

🗐وفد طيء:

✉ قدم وفد من أعيان طيء للقاء رسول الله – صلى الله عليه وسلم -، وبصحبتهم سيّدهم زيد الخيل رضي الله عنه، فأناخوا رِكَابهم بباب المسجد، وصادف عند دخولهم أن كان النبي يخطب المسلمين على المنبر وقت خطبة الجمعة، فراعهم كلامه، وأدهشهم تعلق المسلمين به.

✉ولقد كان فطناً فلما أبصرهم، ورأى وفدا يدخل المسجد أول مرة، حتى أدار بعض الكلام وخاطبهم به، فقال: "إني خير لكم من العزى، ومن كل ما تعبدون، إني خير لكم من الجمل الأسود، الذي تعبدونه من دون الله".

✉فقام زيد، وكان من أجْمَل الرِّجال وأتَمِّهم، وكان يَرْكَب الفرس المشْرِف ورِجلاه تَخُطَّان الأرض كأنَّه على حمار، فقال: أشهد أنْ لا إله إلاَّ الله، وأنَّك محمَّد رسول الله، قال: ومَن أنت؟ قال: أنا زَيْدُ الخيْل بن مهلْهل، فقال رسول الله: ((بل أنت زَيْدُ الخَيْر))، وقال: ((الحمد لله الذي جَاء بِك مِن سهْلِك وجبَلِك، ورقَّق قلْبَك على الإسلام، يا زيدُ، ما وُصِف لي رجل قطُّ فرأيتُه إلاَّ كان دُون ما وُصِف به، إلاَّ أنت؛ فإنَّك فوْقَ ما قِيل فيك)) وقال : (يا رسول الله، أعطني ثلاثمائة فارس، وأنا كفيل لك، بأن أغير بهم على بلاد الروم، وأنال منهم) فأكبر همته هذه، وقال له: "لله درك يا زيد، أي رجلٍ أنت؟" وقال صلى الله عليه وسلم: كم سيكون له من الشأن، لو سلم من وباء المدينة" وكانت المدينة آنئذ موبوءة بالحمى، فما إن برحها زيد الخير حتى أصابته، فلفظ أنفاسه الأخيرة في بعض الطريق.

📃وفد عبد القيس:

✉كانوا من سكان شرق الجزيرة العربية، ومن أول من أسلم خارج المدينة، فإن أول مسجد أقيمت فيه الجمعة بعد مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هو مسجدهم بقرية جواثي بالبحرين، وقد توافد بنو عبد القيس مرتين، مرة في السنة الخامسة من الهجرة، ومرة في سنة الوفود، والوافدون في المرة الأولى كانوا ثلاثة عشر أو أربعة عشر رجلاً، فلما وصلوا المدينة ورأوا النبي - صلى الله عليه وسلم - رموا بأنفسهم عن الركائب بباب المسجد، وتبادروا إليه يسلمون عليه، وكان فيهم عبد الله بن عوف الأشج، وكان أصغرهم سناً، فتخلف عند الركائب حتى أناخها، وجمع المتاع، وأخرج ثوبين أبيضين فلبسهما، ثم جاء هونا حتى سلم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم "إن فيك لخصلتَين يُحبُّهما اللهُ ورسولُه الحلمُ والأناةُ " .

«إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ، وَالأَنَاةُ» (رواه مسلم)

✉وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - قد قال قبل وصولهم إلى المدينة: سيطلع عليكم ركب هم خير أهل المشرق، لم يكرهوا على الإسلام، وقد أنضوا الركائب، وأفنوا الزاد، اللهم اغفر لعبد القيس. فلما جاؤوه قال ": مرحبا بكم غير خزايا ولا ندامى".

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِجُلَسَائِهِ: «أَتَاكُمْ وَفْدُ عَبْدِ الْقَيْسِ خَيْرُ أَهْلِ الْمَشْرِقِ وَفِيهِمُ الأَشَجُّ الْعَصَرِيُّ، غَيْرَ نَاكِثِينَ وَلا مُبَدِّلِينَ وَلا مُرْتَابِينَ إِذْ لَمْ يُسْلِمْ قَوْمٌ حَتَّى وُتِرُوا»" (شرح النووي على مسلم)، وُتِرُوا: أي أصيبوا بقتل أو أسر.

✉سألوه عن أمر فصل يعملون به، ويخبرون به من ورائهم، فأمرهم بأربع:

1. شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

2. وإقام الصلاة.

3. وإيتاء الزكاة.

4. وصوم رمضان.

✉ولم يكن قد فرض الحج إذ ذاك فلم يأمر به، وطلب منهم أن يعطوا من المغنم الخمس، ونهاهم عما يسكر من الأشربة، وكانوا يكثرون منها، ونهاهم أيضاً عن الأواني التي كانوا ينتبذون فيها.

أما الوفادة الثانية فكان فيها أربعون رجلاً، فيهم الجارود بن العلاء العبدي، كان نصرانياً فأسلم، وحسن إسلامه.

🗐وفود ضِمامُ بنُ ثَعْلَبَةَ من بني سعد بن بكر:

✉كان رجلاً جافياً من أهل البادية، ذا غديرتين، وقدم المدينة فأناخ بعيره في المسجد، وعقله، ثم قال: أيكم ابن عبد المطلب؟ فدلوه عليه - صلى الله عليه وسلم -، فدنا منه وقال: يا محمد! إني سائلك، فمشدد عليك في المسألة، فلا تجد علي في نفسك، فقال: "سل ما بدا لك".

فقال: أَتَانَا رَسُولُكَ فَزَعَمَ لَنَا أَنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ الله أَرْسَلَكَ؟ قَالَ: "صَدَقَ". قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ؟ قَالَ: "الله" قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ الأَرض؟ قَال: "الله" قَالَ: فَمَنْ نَصَبَ هٰذِهِ الْجِبَالَ، وَجَعَلَ فِيهَا مَا جَعَلَ؟ قَالَ: "الله". قَالَ: فَبِالَّذِي خَلَقَ السَّمَاءَ وَخَلَقَ الأَرْضَ وَنَصَبَ هٰذِهِ الْجِبَالَ، آلله أَرْسَلَكَ؟ قَالَ: "نَعَمْ"، قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِنَا وَلَيْلَتِنَا، قَالَ: "صَدَقَ". قَالَ: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ. آلله أَمَرَكَ بِهٰذَا؟ قَالَ: "نَعَمْ". قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا زَكَاةً فِي أَمْوَالِنَا. قَالَ "صَدَقَ" قَالَ: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ. آلله أَمَرَكَ بِهَـٰذَا؟ قَالَ "نَعَمْ" قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا صَوْمَ شَهْرِ رَمَضَانَ فِي سَنَتِنَا. قَالَ:

"صَدَقَ". قَالَ: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ، آللهُ أَمَرَكَ بِهٰذَا؟ قَالَ: "نَعَمْ". قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا حَجَّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً. قَالَ: "صَدَقَ". قَال، ثُمَّ وَلَّى. قَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ! لاَ أَزِيدُ عَلَيْهِنَّ وَلاَ أَنْقُصُ مِنْهُنَّ. فَقَالَ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - "لَئِنْ صَدَقَ لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ".

✉ولما رجع إلى قومه وقد خلع الأنداد، وأخبرهم بما أمرهم به ونهاهم عنه رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ما أمسى من قومه رجل ولا امرأة إلا مسلماً، وبنوا المساجد، وأذنوا بالصلاة، فلم يكن وافد أفضل من ضمام بن ثعلبة.

📄وفد عُذْرَةَ و بَلِيّ :

وفي شهر صفر سنة 9 هـ قدم اثنا عشر رجلاً بني عذرة، وذكروا قرابتهم من قصي، ونصرتهم له في إخراج بني بكر وخزاعة من مكة، فرحب بهم النبي - صلى الله عليه وسلم -، وبشرهم بفتح الشام، ونهاهم عن السؤال الكهنة، وذبائح النصب، وقد أسلموا وأقاموا أياماً ثم رجعوا.

وعلى إثرهم جاء وفد بلى - وفي ربيع الأول سنة 9 هـ فأسلموا وأقاموا ثلاثاً ثم رجعوا.

📄وفد بني أسد بن خزيمة:

✉قدم عشرة منهم في أول سنة تسع، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - في المسجد مع أصحابه، فسلموا، وقال متكلمهم: يا رسول الله! إنا شهدنا أن الله وحده لا شريك له، وأنك عبده ورسوله، وجئناك يا رسول الله ولم تبعث إلينا بعثاً، فأسلمنا ولم نقاتلك، كما قاتلك بنو فلان، ونحن لمن وراءنا سلم، فأنزل الله: {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}. وسألوه عما كانوا يفعلونه في الجاهلية من العيافة، وهي زجر الطير - والكهانة، وضرب الحصباء، فنهاهم عن ذلك، وسألوه عن الرمل، فقال: علمه نبي، فمن صادف مثل علمه فذاك وإلا فلا. ومعلوم أن المصادفة مستحيلة المعرفة، وكل هذه الأعمال من التخرص على الغيب، ومكث أهل الوفد أياماً يتعلمون الفرائض، ثم انصرفوا وقد أجيزوا.

وفد تجيب:

تجيب فرع من قبيلة كندة. وقد جاء هؤلاء بصدقات قومهم مما فضل عن فقرائهم، فسر بهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وأكرم مثواهم، وقال أبوبكر - رضي الله عنه -: ما قدم علينا وفد من العرب مثل هذا، فقال - صلى الله عليه وسلم "إن الهدى بيد الله فمن أراد به خيراً شرح صدره للإيمان".

وكانوا يسألون عن القرآن والسنن يتعلمونها، ثم أرادوا الرجوع فأجازهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأفضل ما كان يجيز به الوفود، وسألهم هل بقي منهم أحد، قالوا: غلام خلفناه في رحلنا، هو أحدثنا سنا، قال: أرسلوه فأقبل وقال: يا رسول الله! أنا من الرهط الذين أتوك آنفا، فقضيت حاجتهم فاقض حاجتي. قال: وما حاجتك؟ قال: تسأل الله أن يغفر لي ويرحمني ويجعل غناي في قلبي. فدعا له بذلك، وأمر له بمثل جائزة أصحابه، فكان أقنع الناس، وثبت في الردة على الإسلام، ووعظ قومه فثبتوا عليه.

وَفْدُ بَنِي فَزَارَةَ:

جاء هذا الوفد بعد مرجعه - صلى الله عليه وسلم - من تبوك، في بضعة عشر رجلاً، مقرين بالإسلام، وهم مسنتون، فسألهم النبي - صلى الله عليه وسلم - عن بلادهم فشكوا جدبها، وقالوا: فادع الله لنا ربك يغيثنا، واشفع لنا إلى ربك، وليشفع لنا ربك إليك، فقال: سبحان الله، ويلك هذا، أنا أشفع إلى ربي، فمن ذا الذي يشفع ربنا إليه؟ لا إله إلا هو العلي العظيم، وسع كرسيه السماوات والأرض، فهي تئط من عظمته وجلاله كما يئط الرحل الحديث. ثم صعد المنبر، ودعا الله، حتى أغاثهم بالمطر الغزير والرحمة التامة.

وفد نجران:

نجران منطقة كبيرة على حدود اليمن، طولها مسيرة يوم للراكب السريع، كانت تشمل على ثلاث وسبعين قرية، فيها عشرون ومائة ألف مقاتل، كلهم على دين النصارى، فكتب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى أسقفهم يدعوهم إلى الإسلام، فلما قرأ الكتاب فزع، واستشار خاصتهم ثم عامتهم، فاستقر رأيهم على إرسال وفد يعالج القضية، فأرسلوا وفداً يتكون من ستين رجلاً، فجاؤوا النبي - صلى الله عليه وسلم - وقد لبسوا حللاً من حبرة يجرونها، وأردية من حرير، وخواتيم من ذهب، فلم يكلمهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فأشار عليهم بعض كبار الصحابة أن يغيروا حللهم، ويضعوا خواتيمهم، ففعلوا، فكلمهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ودعاهم إلى الإسلام، فأبوا، وقالوا: كنا مسلمين قبلكم. فقال لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم يمنعكم عن الإسلام ثلاث: عبادتكم الصليب. وأكلكم لحم الخنزير. وزعمكم أن لله ولداً. قالوا: فمن مثل عيسى؟ خلق من غير أب. فأنزل الله في ذلك: (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ {59} الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُن مِّن الْمُمْتَرِينَ {60} فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ {61}. فتلاها عليهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ودعاهم إلى المباهلة، فطلبوا منه فرصة، واستشاروا فيما بينهم، فقالوا: إن كان نبياً ولاعناه لا يبقى منا شعر ولا ظفر إلا هلك، فرضوا بإعطاء الجزية. وهي ألف حلة في صفر، وألف حلة في رجب، مع كل حلة أوقية، وجعل لهم الذمة والأمان، والحرية في الدين، ثم قالوا: أرسل معنا رجلاً أميناً، فأرسل معهم أبا عبيدة عامر بن الجراح، فسمى بأمين هذه الأمة، وفي عودتهم إلى نجران أسلم اثنان منهم، ثم بدأ الإسلام يفشو فيهم حتى أسلم جمع منهم.

وفد أهل الطائف:

سبق أن النبي - صلى الله عليه وسلم - حاصر أهل الطائف بعد غزوة حنين، ثم تركهم في أماكنهم، ورجع، فلما رجع تبع أثره عروة بن مسعود الثقفي حتى أدركه قبل أن يصل إلى المدينة، فأسلم، ثم رجع ودعا قومه إلى الإسلام - وكان أحب إليهم من أبكارهم، فظن أنهم يطيعونه - فرموه بالنبل من كل جانب حتى قتلوه، ثم ائتمروا بينهم، ورأوا أنهم لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب، فبعثوا عبد ياليل بن عمرو، ومعه خمسة آخرون من أشرافهم، وذلك في رمضان سنة 9 هـ فلما قدموا المدينة ضرب عليهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبة في ناحية المسجد ليسمعوا القرآن، ويروا الناس إذا صلوا.

ومكثوا يختلفون إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، يدعوهم إلى الإسلام، وهم لا يسلمون، حتى طلبوا منه أن يسمح لهم بالزنا وشرب الخمر وأكل الربا، وأن لا يهدم اللات، ويعفيهم عن الصلاة، وأن لا يكسروا أصنامهم بأيديهم، فأبى، وأخيراً رضخوا له، وأسلموا واشترطوا أن يتولى هو بهدم اللات، وأن ثقيفاً لا يهدمونها بأيديهم أبداً. فقبل ذلك.

وكان عثمان بن أبي العاص الثقفي أصغرهم سناً، فكانوا يختلفونه في رحالهم، فكان إذا رجعوا يذهب إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - يستقرؤه القرآن، وإذا رأه نائماً استقرأ أبا بكر، حتى حفظ شيئاً كثيراً من القرآن، وهو يكتم ذلك عن أصحابه، فلما أسلموا أمره عليهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لحرصه على الإسلام وقراءة القرآن وتعلم الدين.

ورجع الوفد إلى قومه فكتم عنهم إيمانه، وخوفهم الحرب والقتال، وقالوا: جئنا رجلاً فظاً غليظاً قد ظهر بالسيف، ودان له الناس، فعرض علينا أموراً شديدة، وذكروا ما تقدم من ترك الزنا والخمر والربا وغيرها، وإلا يقاتلهم، فأخذتهم النخوة، واستعدوا للقتال يومين أو ثلاثة أيام، ثم ألقى الله في قلوبهم الرعب فقالوا للوفد: ارجعوا فأعطوه ما سأل. فقال الوفد: قد قاضيناه وأسلمنا فأسلمت ثقيف.

وبعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خالد بن الوليد والمغيرة بن شعبة الثقفي في رجال إلى الطائف ليهدموا اللات، فكسروها وهدموا بنيانها.

وفد بني عامر بن صعصعة:

كان في هذا الوفد عدو الله عامر بن الطفيل الذي غدر بأصحاب بئر معونة، وَأَرْبَدُ بْنُ قَيْسٍ وجابر بن أسلم، وكانوا رؤساء القوم وشياطينهم، وقد تأمر عامر وأربد بن قيس على اغتيال النبي - صلى الله عليه وسلم -، فلما قدموا المدينة دعاهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الإسلام، فقال عامر- وهو المتكلم عن الوفد: أخيرك بين خصال ثلاث: يكون لك أهل السهل ولي أهل المدر. أو أكون خليفتك من بعدك، أو أغزوك بغطفان بألف أشقر، وألف شقراء. فرفض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كل ذلك، وقال: اللهم اكفني عامراً واهد قومه.

ودار أربد، وحينما كان عامر يتكلم، خلف النبي - صلى الله عليه وسلم -، واخترط سيفه شبراً، ثم حبس الله يده فلم يقدر على سله.

فلما رجعوا وكانوا ببعض الطريق نزل عامر عند امرأة من قومه من بني سلول، ونام في بيتها، فبعث الله عليه الطاعون، وأخذته غدة في حلقه، فقال: أغدة كغدة البعير، وموت في بيت سلولية؟ ائتوني بفرسي، فركب فمات على فرسه.

وأما أربد فأرسل الله عليه وعلى جمله صاعقة فأحرقتها، وفي ذلك أنزل الله تعالى: {وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ}.

وقد روى قصتهما موئلة بن جميل الصحابي - أحد رجال قبيلتهما بني عامر - وكان هو أيضاً قد أتى النبي - صلى الله عليه وسلم - فأسلم وهو ابن عشرين سنة، وبايعه، ومسح يمينه، وساق إبله إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فصدقها بنت لبون، ثم صحب بعده أبا هريرة، وعاش في الإسلام مائة سنة، وكان يسمى ذا اللسانين لأجل فصاحته.

وأيضا مما نذكر هنا النهي عن المبالغة والغلو في الثناء والمدح، مما وقع به وفد بني عامر:

ويقولُ عبدُ اللهِ بنُ الشِّخِّيرِ رضِيَ اللهُ عنه انطلقتُ في وفدِ بني عامرٍ إلى رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، فقلنا أنت سيدُنا، فقال: السيدُ اللهُ تبارك وتعالى، قلنا: وأفضلُنا فضلًا، وأعظمُنا طولًا، فقال: قولوا بقولِكم ، أو بعضِ قولِكم ، ولا يَسْتَجْرِيَنَّكم الشيطانُ. صحيح أبي داود

☜ويقولُ عبدُ اللهِ بنُ الشِّخِّيرِ رضِيَ اللهُ عنه: "انطلَقْتُ في وفْدِ بَني عامِرٍ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم"، أي: قاصِدينَ ومتوجِّهينَ إليه، "فقُلنا" أي: بعدَ أنْ وصَلْنا وقابَلْنا النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مادِحينَ له: "أنتَ سيِّدُنا"، فقال لهم النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "السَّيِّدُ اللهُ تبارَكَ وتعالى"، أي: الَّذي له السِّيادةُ على الحقيقَةِ هو اللهُ عزَّ وجلَّ. قال عبد الله: "فقلنا: وأفْضَلُنا فضْلًا"، أي: أعْلانا رُتبَةً وشرَفًا ومزِيَّةً، "وأعْظَمُنا طَوْلًا"، أي: أكثرُنا عَطاءً وعلوًّا ورِفعَةً، فقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "قولوا بقولِكم"؛ الَّذي قُلتُموه، أو "بعْضِ قولِكم"، أي: اترُكوا بعْضًا ممَّا تَقولون؛ لعَدَمِ المُبالغَةِ في المدْحِ، "ولا يسْتجْرِيَنَّكمُ الشَّيطانُ"، أي: لا يَستعْمِلنَّكم الشَّيطانُ فيما يُريدُ، أو لا تُبالِغوا في المَديحِ حتَّى لا يَجرَّكم الشَّيطانُ إلى ما يُخالِفُ الحقَّ فتَقَعوا في الباطِلِ. الدرر السنية

☜وإنَّ تَخصيصَ السِّيادةِ للهِ عزَّ وجلَّ في هذا الحَديثِ لا يُنافِي قولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في حديثٍ آخَرَ: "أنا سيِّدُ ولدِ آدَمَ، ولا فَخْرَ"، ولا قولَه صلَّى الله عليه وسلَّم لبَني قُريظةَ: "قُوموا إلى سَيِّدِكم" يُريدُ سَعْدَ بنَ مُعاذٍ؛ وذلك أنَّهم كانوا في هذا الوقتِ حَديثِي عَهدٍ بجاهليَّة، وربَّما قَصَدوا بالسِّيادةِ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بَعضَ المعاني المشترَكةِ في حَقِّ اللهِ تعالى؛ فرَدَّها النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لله عزَّ وجلَّ. الدرر السنية

وفد بني حنيفة:

✉كانت وفادتهم سنة 9 هـ وكانوا سبعة عشر رجلاً، فيهم مسيلمة الكذاب، ونزلوا في بيت رجل من الأنصار، ثم جاءوا النبي - صلى الله عليه وسلم - فأسلموا، أما مسيلمة فيقال: إنه أيضاً أسلم معهم، ويقال: إنه تخلف ولم يحضر، وقال: إن جعل لي محمد الأمر من بعده تبعته.

✉وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - قد أري قبل ذلك في المنام أنه أتي بخزائن الأرض، فوقع في يديه سواران من ذهب، فكبروا عليه وأهماه، فأوحى إليه أن انفخهما، فنفخهما فذهبا، فأولهما كذابين يخرجان من بعده.

✉فجاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مسيلمة، وفي يده - صلى الله عليه وسلم - قطعة من جريد، ومعه ثابت بن قيس، فوقف عليه في أصحابه، فكلمه، فقال له مسيلمة: إن شئت خلينا بينك

وبين الأمر، ثم جعلته لنا بعدك، فقال: لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكما، ولن تعدو أمر الله فيك، ولئن أدبرت ليعقرنك الله. والله إني لأراك الذي أريت فيه ما أريت. وهذا ثابت بن قيس يجيبك عني، ثم انصرف.

✉ورجع الوفد فلبث مسيلمة يسيراً ثم ادعى أنه أشرك في الأمر مع النبي - صلى الله عليه وسلم - وادعى النبوة، ولفق السجعات، وأحل لقومه الخمر والزنا، وافتتن به قومه، وتفاقم أمره، حتى توفي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو على ذلك، فازداد قومه افتتاناً به، فأرسل إليه أبو بكر - رضي الله عنه - الجيوش بقيادة خالد بن الوليد، فجرت بينه وبين المسلمين حروب شديدة، قتل فيها مسيلمة ومعظم جنوده، وقضي على فتنته، وكان الذي قتله وحشي بن حرب قاتل حمزة - رضي الله تعالى عنه -.

✉أما الكذاب الثاني الذي أريه النبي - صلى الله عليه وسلم - فهو الأسود العنسي.

ظهور الأسود العنسي وقتله:

✉وبينما استتب الأمن والإسلام في اليمن، وعمال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - متوافرون في جميع جهاته إذ ظهر الأسود العنسي من بلدة كهف حنان في سبعمائة مقاتل، يدعي لنفسه النبوة والأمر، وتقدم إلى صنعاء واحتلها، ثم تفاقم أمره، واشتدت فتنته، وقوي ملكه، حتى انحاز عمال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى أرض الأشعريين، وعامله المسلمون بالتقية، واستمر ذلك ثلاثة أشهر، أو أربعة أشهر، ثم احتال عليه فيروز الديلمي وزملاؤه من الفرس، وكانوا قد أسلموا، فقتله فيروز، واحتز رأسه، ورماه خارج الحصن فانهزم أصحابه، وظهر الإسلام وأهله، وتراجع نواب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى أعمالهم، وكتبوا بذلك إليه - صلى الله عليه وسلم -.

وكان قتله قبل وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم - بيوم وليلة، فأتاه الوحي، فأخبر به أصحابه، ثم وصل الكتاب في زمن أبي بكر الصديق – رضي الله عنه-.

✉وفود رسول ملوك حمير، وبعث معاذ بن جبل، وأبي موسى الأشعري

وبعد مرجعه - صلى الله عليه وسلم - من تبوك قدم مالك بن مرة الرهاوي، يحمل معه كتاب ملوك حمير، وهم: الحارث بن عبد كلال، ونعيم بن عبد الكلال، والنعمان قيل ذي رعين ومعافر وهمدان. وكانوا قد أسلموا وأرسلوه بذلك، فكتب إليهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كتاباً بين لهم فيه ما لهم وما عليهم، وأعطى الذمة للمعاهدين.

✉ثم أرسل إليهم معاذ بن جبل في رجال من أصحابه، على الكورة العلياء من جهة عدن بين السكون والسكاسك، وكان قاضياً وحاكماً في الحروب، وعاملاً على أخذ الصدقة والجزية، ويصلي بهم الصلوات الخمس، وبعث أبا موسى الأشعري - - رضي الله عنه - على الكورة السفلى، زبيد ومأرب وزمع والساحل، وقال: يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا.

✉وقد مكث معاذ باليمن حتى توفي رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، أما أبو موسى الأشعري - رضي الله عنه - فقدم عليه - صلى الله عليه وسلم - في حجة الوداع.

📄وفد همدان وبعث خالد وعلي:

✉همدان قبيلة مشهورة باليمن، وقد وفدها سنة 9 هـ بعد مرجعه - صلى الله عليه وسلم - من تبوك، وفيهم مالك بن النمط، وكان شاعراً مجيداً، فقال:

حلفت برب الراقصات إلى منى صوادر بالركبان من هضب قردد

بأن رسول الله فينا مصدق ... رسول أتى من عند ذي العرش مهتد

فما حملت من ناقة فوق رحلها أشد على أعدائه من محمد

✉فكتب لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كتاباً وأقطعهم فيه ما سألوه، واستعمل مالك ابن النمط على من أسلم من قومه، ثم بعث خالد بن الوليد يدعو بقيتهم إلى الإسلام، فمكث فيهم ستة أشهر ولم يسلموا، ثم بعث إليهم علي بن أبي طالب، وأمره أن يقفل خالداً ففعل، وقرأ عليهم كتاباً لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ودعاهم إلى الإسلام فأسلموا، فكتب البشارة إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فخر ساجداً. ثم رفع رأسه فقال: "السلام على همدان، والسلام على همدان".

📄وفد بني عبد المَدَان:

ثم بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خالد بن الوليد في ربيع الآخر سنة 10 هـ إلى بني عبد المدان بنجران من أرض اليمن ليدعوهم إلى الإسلام ثلاثة أيام، فإن أبوا قاتلهم، فلما قدم إليهم بعث الركبان في كل وجه، يدعون إلى الإسلام، وكتب بذلك إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فأرسل إليه أن يقدم بوفدهم ففعل، ولما اجتمعوا به - صلى الله عليه وسلم - قال لهم: بم كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية؟ قالوا: كنا نجتمع ولا نتفرق، ولا نبدأ أحداً بظلم، قال: صدقتم، وأمر عليهم قيس بن الحصين. ورجعوا إلى قومهم في بقية شوال أو صدر ذي القعدة. ثم أرسل إليهم عمرو بن حزم ليفقههم في الدين، ويعلمهم السنة ومعالم الإسلام، ويأخذ منهم صدقاتهم وكتب له كتاباً. وهو كتاب مشهور جداً.

إسلام بني مذحج:

وهي أيضاً قبيلة يمانية، أرسل إليهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - علي بن أبي طالب في رمضان سنة 10 هـ ليدعوهم إلى الإسلام، وأمره أن لا يقاتلهم حتى يقاتلوه، فلما انتهى إليهم، ولقي جموعهم دعاهم إلى الإسلام، فأبوا ورموا المسلمين بالنبل، فصف علي مع أصحابه، وقاتلهم حتى هزمهم، فكف عن طلبهم قليلاً، ثم لحقهم ودعاهم إلى الإسلام فأسلموا، وبايعه رؤساؤهم، وقالوا: نحن على من وراءنا من قومنا، وهذه صدقاتنا، فخذ منها حق الله، ففعل، ثم رجع إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فوافاه بمكة في حجة الوداع.

وفد أزد شنوءة:

هي أيضاً قبيلة مشهورة في جهة اليمن، توافدوا برئاسة صرد بن عبد الله الأزدي، فأسلموا، فأمره عليهم، وأمره أن يجاهد بمن أسلم من يليه من أهل الشرك.

وفود جرير بن عبد الله البجلي وهدم ذي الخلصة:

وقدم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جرير بن عبد الله البجلي، وهو من مشاهير الصحابة، ....

قال جرير -رضي الله عنه -: لمَّا دنوتُ من المدينة أنخت راحلتي، وحللت عيبتي، ولبستُ حُلَّتي، ثم دخلتُ المسجد فإذا برسول الله يخطب، فرماني الناسُ بالحدَق-أي نظروا إليه-، فقلتُ لجليسي: يا عبدَ الله، هل ذكرَ رسولُ الله مِن أمري شيئاً؟ قال: نعم، ذكرك بأحسنِ الذِّكرِ، بينما هو يخطب إذْ عرض له في خطبتِهِ، فقال: (إنه سيدخل عليكم من هذا الفجِّ من خيرِ ذي يَمَنٍ، ألا وإنَّ على وجهه مِسحةَ ملكٍ). قال: فحمدت الله. وقد كان جميلاً، بل كان يشبه بجمال يوسف – عليه السلام-، قال عمر: هو يوسفُ هذه الأمةِ. قال الذهبيُّ: " قلتُ: كان بديعَ الحسن، كامل الجمال.

عن جرير بن عبد الله البجلي انه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو في بيت مدحوس من الناس فقام بالباب فنظر النبي صلى الله عليه وسلم يمينا وشمالا فلم ير موضعا فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم رداءه فلفه ثم رمى به إليه فقال اجلس عليه فأخذه جرير فضمه وقبله ثم رده على النبي صلى الله عليه وسلم وقال أكرمك الله يا رسول الله كما أكرمتني فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه.

وعن جرير بن عبد الله: ما حجبني رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أسلمت ولا رآني إلا ضحك.

وكان لقبيلته بجيلة وخثعم صنم ومعبد كبير يسمونه ذا الخَلَصَةِ، يضاهون به الكعبة، فكانوا يقولون للكعبة الكعبة الشامية، ولمعبدهم الكعبة اليمانية، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوماً لجرير: ألا تريحني من ذي الخلصة؟ فشكا إليه أنه لا يثبت على الخيل، فضرب بيده الكريمة في صدره وقال: اللهم ثبته واجعله هادياً مهدياً، فلما يسقط بعد ذلك عن فرس.

ونفر جرير إلى ذي الخلصة في خمسين ومائة راكب من قومه أحمس - فرع من بجلية - فخرب ذلك البيت، وأحرقه، وتركه مثل الجمل الأجرب، وبعث أبا أرطاة إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يبشره بذلك، فدعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالبركة خَيْلِ أحْمَسَ ورجالها، خمس مرات.

✉وبإمكاننا أن نستقي من الأخبار السابقة المنهج النبوي العظيم في كيفيّة التعامل مع المدعوّين ومراعاة مشاعرهم واختلاف مستوى مداركهم، كما تعكس تلك الأخبار دقّة النبي – صلى الله عليه وسلم – وتنظيمه من خلال تهيأته الأماكن لاستقبال تلك الوفود وإعداد دور الضيافة لهم، وتظهر أيضاً حرص القادمين على معرفة أحكام الدين وشرائعه، فكانت هدايتهم هدايةً لمن ورائهم من العرب.

المراجع:

❶روضة الأنوار في سيرة النبي المختار المباركفوري.

❷الرحيق المختوم المباركفوري.

❸ الدرر السنية.

❹ اسلام ويب: عام الوفود.

❺ من ويكيبيديا، زيد الخير.

❻تفسير ابن كثير.

❼ مفاتح الغيب للرازي.